Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

الوضع الاقتصادي في إقليم توات قبل 1901

THE ECONOMY OF TOUAT'S PROVINCE BEFORE 1901

نور الدين إيلال – ILLAL Nourredine
جامعة البليدة -2- Université Blida -2-
الإيميل: illal.nourrdine@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2020-07-25 تاريخ القبول : 2020-11-28

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الملخص:

هدفت هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على التاريخ الاقتصادي لإقليم توات حيث أن الكثير من الدراسات والموضوعات المعاصرة يميل معظمها إلى التاريخ السياسي والعسكري فما أحوجنا إلى مدرسة تاريخية اقتصادية تؤرخ لمختلف المناطق فلا يوجد سوى النزر القليل من الكتابات التي تصب في هذا التوجه، ومنه جاء عنوان موضوع مقالنا الموسوم (الوضع الاقتصادي في إقليم توات قبل احتلاله 1901) والذي سأحاول فيه تبيان أهمية الإقليم الاقتصادية ودور ساكنته في الصناعة والتجارة.

أظهرت نتائج الدراسة وجود أثر الجهود الفرنسية لاستمالة العنصر المحلي لإقحامه في مشروعها الاقتصادي الرأسمالي الكولونيالي لمرحلة ما بعد 1901 وهو تاريخ إخضاع إقليم توات فأدركت مقدراته الاقتصادية والطرق المؤدية إلى مختلف دول الجوار من خلال تجارة القوافل التي كانت موجودة من قبل.

لتحقيق هذه المرامي والأهداف الاستراتيجية اقتنعت بأنه لا مناص إلا بتهيئة الظروف اللازمة على الرغم من وجود تجاذب بين المصالح الأهلية والمصالح الأجنبية.

الكلمات المفتاحية:

إقليم توات ، الطرق التجارية.، المقدرات الاقتصادية.، المشروع الاقتصادي الرأسمالي الكولونيالي.، المصالح الاستراتيجية.

Abstract :

This study aimed to shed light on the economic history of the “Touat province”. As many contemporary studies and topics tend mostly to political and military history, from it came the tittle of my article “ Touat province economy before 1901. “

The results of the study showed the presence of the effects of the French efforts to co-opt the local component of its inclusions on its colonial capitalist economic project after 1901.

To achieve these strategic objectives, the French government was convinced that it must create the best conditions in order to realize its expansion in spare parts of the neighbors countries.

Key words:

-The Touat province ; the trade ways ; the economics potentials. ; Touat population ; strategic interests:.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

. مقدمة:

شهدت بعض مناطق وأقاليم الجزائر اهتماما كبيرا من طرف المؤرخين لا سيما الذين أرخوا للفترة الوسيطة وبعضهم للفترة الحديثة لكن لا تزال الكتابات عن واقعها الاقتصادي والاجتماعي خلال الفترة المعاصرة قليلة جدا، خاصة ما كتبته المصادر الأجنبية في تقاريرها في مناسبات عديدة، ولكي نلتزم بموضوع المقال كان لا بد من تحديد الإطار الزمني الذي نبحث فيه ويخص إقليم توات لأهميته الاقتصادية والاستراتيجية التي حاولت السلطات الاستعمارية استكشاف خصوصيتها الاقتصادية والاستراتيجية لتؤسس لنفسها مجالا حيويا في الصحراء ثم نشر قواتها في افريقيا جنوب الصحراء لاستغلال مقدراتها الاقتصادية والتي تميز البيئة الصحراوية وبسط نفوذها مزاحمة بذلك القوى الأوروبية الأخرى مثل انجلترا .

فالموضوع يطرح إشكالية مدى تأثير أصداء التوسع الفرنسي في هوامش الصحراء الشمالية على سيرورة الاقتصاد المحلي زراعة، صناعة وتجارة علما أن إقليم توات كان منطقة عبور ومحطة للتجار نحو مختلف بلاد السودان وافريقيا جنوب الصحراء . فإلى أي مدى اهتمت السلطات الاستعمارية بهذا الإقليم؟ فهل كان اهتمامها اعتباطيا يدخل في إطار حلقات استكمال نشاطها الاستعماري في ظل جهود الاحتلال الشامل أم كان له أبعاد استراتيجية أخرى؟ وانطلاقا من هذه الإشكالية سأحاول الولوج إلى هذه التساؤلات من خلال دراسة وضع إقليم توات ودوره الاقتصادي قبيل إخضاعه 1901، منطلقا من إعطاء فكرة عن جغرافيته ، ونبذة عن المصادر العربية والأجنبية التي تناولت جانبه الاقتصادي وإبراز مقدراته الاقتصادية في الزراعة والصناعة منتهيا بالنشاط التجاري وعلاقة ذلك بساكنته وخاتمة للمقال.

2. توات في المصادر العربية و الأجنبية:

يقع إقليم توات في الجنوب الغربي للجزائر ، يحده من الشمال: العرق الغربي ، من جهة الجنوب عرق شاش وهضبة مويدير، غربا نجد كثبان إيغدي ، وأما من الناحية الشرقية هضبة تدمايت . و تشير المصادر بأنها موطن ذو أراضي خصبة ومروية يرتبط موقعها بالجنوب الوهراني بخط مائي يمتد من عين الصفراء إلى جنان بورزق على امتداد 320 كلم [1] وكان إقليم توات يشتمل على ثلاث مقاطعات وهي: منطقة القورارة الواقعة في شمالها ، ثم مركز توات في جنوبها ، وأخيرا تيديكيلت في الشرق والجنوب الشرقي، أما عن مساحتها تبلغ 2000 كلم [2] . و أكبر هذه المقاطعات مساحة في الاقليم، مركز توات بنحو 1200 كلم[2]. اما فلكيا فيقال بأنها محصورة بين درجتي عرض 26و30 درجة شمالا وبين خطي طول 4° و01 شرقا° [3] .

أولا: توات في المصادر العربية

لقد ورد ذكر توات في المصادر العربية في كتاب ابن خلدون ما يلي: " ... **وطن توات فيه قصور متعددة تناهز المائتين آخره من جانب الشرق يسمى تمنطيط وهو بلد مستبحر في العمران..."** [4] . كما تحدث عنه أيضا ابن بطوطة أثناء رحلته التي كانت في سنة 754 هـ بالقول: **" وقصدت السفر إلى توات..."** [5] . إلى جانب هذا، يقال بأنها مجموعة من واحات الصحراء الجزائرية الواقعة في الجنوب الغربي التي تشكل إقليم عبور بين سفوح الأطلس الجنوبي للجزائر و بلاد السودان حيث يشكل فيها وادي الساورة الطريق التجاري لهذا الإقليم [6] .ذلك لأنه الأكثر ارتيادا تمر به العديد من القوافل سنويا.

لا يختلف اثنان في أن الدراسات التي عنيت بالمخطوطات شكلت ميراثا علميا ومخزونا تراثيا كبيرا يضل شاهد على مكانة الإقليم ودوره في الحقل الديني والعلمي على غرار الحظائر الأخرى التي كانت منارات كبيرة لها إسهاماتها هي أيضا في جميع الحقول، كحاضرة تلمسان، الجزائر، بجاية، ورجلان، وتوات ودورها في التأسيس للتواصل الحضاري فيما بينها وبين مختلف مناطق وحواضر افريقيا. فيقول عنها ابن خلدون : **" كانت توات مركز عبور رئيسي تتجمع فيه القوافل القادمة من ورجلان وغرداية والأبيض سيدي الشيخ وسجلماسة لتنطلق منه عباءة أدلاء توات والطوارق إلى حواضر السودان مثل ولاتة وتمبوكتو ومالي"** [7].

حاز الإقليم أيضا على مكانة مرموقة خلال القرن الرابع عشر الميلادي حيث قال عنه أيضا: " **وطن توات وهو بلد مستبحر في العمران وهو ركاب التجار إلى مالي، ولا يمر الوارد إلا بالدليل**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخريث من الملثمين الظواغن في تلك القفر، يستأجره التجار على البذرقة لهم بأوفى الشروط..." [8] وهو بذلك يبرز أهمية توات في التجارة باعتبارها معبرا نحو بلاد السودان مثل مالي وتنبوكتو وباقي الجيوب المحيطة بها ونشاط ساكنته تجارة ومرافقة لتلك القبائل الذاهبة إلى تلك المناطق ، كما تحدث عنها أيضا الحسن الوزان الذي زار القورارة خلال القرن الخامس عشر ناقلا في مشهد تاريخي صورة سكان توات وأهمية التجارة لدى هؤلاء ويدعم ما جاء به سابقه قائلا : " **وسكان هذه المنطقة أغنياء لأن عاداتهم الذهاب كثيرا مع بضائعهم إلى بلاد السودان حيث يجنون أرباحا كثيرة ،وهنا يقع رأس خيط القوافل حيث ينتظر تجار بلاد البربر تجار بلاد السودان ثم يذهبون سوية "**[9].

ثانيا: توات من خلال المصادر الأجنبية

أما عن المصادر الأجنبية التي تناولت إقليم توات، فهي متعددة ومتنوعة حيث تشمل الكتابات الظرفية التي تزامنت والوجود الفرنسي في الجزائر والتي عنيت بدراسة الإقليم لأسباب نشرحها لاحقا، و تشمل أيضا الدراسات الخاصة التي سجلتها تقارير الحكومة الفرنسية التي أشادت بالإقليم قبل وصول القوات الفرنسية إليه والتي استفاضت في التكلم عن الخصائص المورفولوجية لسطح توات وأطرقت أيضا مسألة تجارة القوافل ، ومذكرات الرحالة الذين وصلوا إلى قلب توات وما جاورها بعد أن فشل الكثير من قبلهم ولقوا هلاكهم فيها والأمثلة في ذلك كثيرة.

و من المصادر التي أطرقت إقليم توات نجد مذكرات الرحالة الألماني و ولفس والبريطاني لاينغ اللذان تمكنا من التعايش مع سكان توات ، ونقلا أخبارا عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الإقليم ، أما الأول وهو (Laing) الذي زار حاضرة توات خمس سنوات قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر وكان ذلك عام 1825 ، أما الثاني فهو الألماني جيربار رولفس (Gérbard Rohlfs) الذي زار توات وما جاورها وكان ذلك عام 1864 والذي تعلم فيها اللغة العربية ، ومكث هنالك مدة شهر تحت غطاء الإسلام بدعم من شيوخ فزان (Le Sahara Algérien et le Touat) قبل احتلالها من قبل القوات الغازية.

هذا، بالإضافة إلى ما ذكره الحاكم العام للجزائر جول كامبون (Jules Cambon) في كتابه الذي استقى معلوماته من تقارير السلطتين المدنية والعسكرية بالقطاع الوهراني والموسوم " Documents pour servir à l'étude du Nord-Ouest Africain » " بالإضافة إلى الصحف اليومية التي تكلمت عن الإقليم مثل جريدة " Le Tafna " وهي الجريدة التي كانت تصدر كل يوم أربعاء .و جريدة " l'indépendant de Mascara " ويضاف إلى ذلك نشرية " Bulletin de la Société de Géographie de Toulouse .

3. المقدرات الاقتصادية في الإقليم

انفرد إقليم توات بخصائصه ومقدراته الاقتصادية التي كانت عليها قبل وبعد التوسع الفرنسي في الجنوب الجزائري، هذا ما أجمعت عليه الدراسات المتخصصة في الحقل الاقتصادي بكل فروعه: الزراعة، الصناعة والتجارة. فما هي نقاط قوة إقليم توات الاقتصادية التي ساهمت في أن يلعب إقليم دوره الاقتصادي في الجنوب الكبير، وفتح آفاق السلطة الاستعمارية وجعلها تعمل على إطلاق العنان لسياستها تحقيقا لأهدافها الاقتصادية والتي تزيد من خلالها في رساميلها وإنعاش مشاريعها الكولونيالية المعطلة؟.

ا . المقدرات الزراعية:

تقوم الزراعة بشكل عام وفي جميع أرجاء المعمورة على مجموعة من الشروط وهي نفسها العوامل المساعدة على الإنتاج الزراعي والصيرورة الزراعية، وبذلك تقوم الزراعة على الدوام، على عاملين أساسيين وهما العامل الطبيعي والعامل البشري.

3.ا.1: العوامل الطبيعية

بالنسبة للعامل الطبيعي تتوفر توات على جملة من المقومات التي هي نفسها الشروط التي ينبغي توفرها لإنجاح الفلاحة على الرغم من طبيعة البيئة الصحراوية. فالواحات التي تشرف بشكل واضح على وادي الساورة وروافده على امتداد 300 كلم مثل وادي سوسفانة، ووادي مسعود اللذان يجعلان من أراضي واحات الإقليم مساحات متميزة وملائمة لزراعة النخيل والخضروات التي تعرفها مناطق الشمال. هذا فضلا عن واد عقربة الذي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يصب في غرب منطقة تيديكلت[10]. بالإضافة إلى الآبار و الفقارات التي تشبهها مصادرنا بآبار بلاد الفرس وأفغانستان[11] فهذه التشبيهات كناية على أهمية العنصر البشري وساكنة توات في إتباع هذا الأسلوب الزراعي الناجع لتوفير حاجات ومتطلبات هؤلاء على الرغم من بساطته ، فيذكر الكومندان (Colonieu) في رحلته من بلغازي إلى تيرامين على مسافة 40 كلم بوجود نحو 30 فوقارة [12].

3أ2: العوامل البشرية

أما العامل الثاني ، فهو العامل البشري والمتمثل في اليد العاملة و بالدرجة الأساس في الخدم من الزنوج الذين كانوا يقومون بمختلف الأشغال المرتبطة بالزراعة، والذين كانوا يحازون مقابل تلك الأشغال الزراعية على كمية متواضعة من الإنتاج عند نهاية فترة جني المحصول [13] ، وتقاسهم نشاطهم هذا نسبة قليلة من البربر. وعلى ذكر الزنوج ، كان هؤلاء يزاوجون بين أعمال الزراعة وأعمال البيت لدى العوائل الميسورة فكان عددهم يقدر بالآلاف حيث وصل تعدادهم بقورارة سنة 1891 إلى 13099 زنجي وفي منطقة توات 17624 وفي تيديكيلت 4194 زنجي [14].

أما عن وسائل الزراعة التي كانت مستعملة بكثرة عند هؤلاء فكانت بسيطة جدا فاستخدم أهالي توات الأساليب الزراعية التي ميزتهم عن جيرانهم حيث أنشئوا أحزمة جدارية تقي واحات التمور من مخاطر الرياح المضرة بمختلف الزروع عند تقدمها واندفاعها من المناطق المكشوفة - الخالية من الحواجز الطبيعية - نحوها .وللحفاظ على نمط توزيع المياه أوكلت هذه المهمة إلى ما عرف بكيال الماء الذي يعتبر المسؤول الأول عن توزيع المياه أثناء السقي سواء أثناء النهار أو أثناء الليل، فيذكر بأن هذه المهمة موروثة – السقي- عن العائلة أبا عن جد [15].

3أ3: أنواع الزروع

سيطرت زراعة النخيل و إنتاج التمور على الزراعة في منطقة توات، ونستشف ذلك من خلال ما رصدته مذكرات الرحالة والمغامرون ، وتقارير الحكومة العامة، حيث ارتفع عدد أشجار النخيل في الواحات التواتية ما بين 1880 إلى 1890 بشكل محسوس حيث وصل 6.801.500 شجرة، وبعدها بسنة واحدة، يذكر بأن عدد النخيل زاد نسبيا حيث أورد (Bissuel) معطيات إحصائية نقلا عن تقارير المؤسسة العسكرية أثناء إلقاءه محاضرة لفائدة ضباط المدية عن المسائل المتعلقة بالصحراء حيث ذكر بأن عدد أشجار النخيل بقورارة بلغ 2.500.000 شجرة، أما في منطقة توات بلغ 3.000.000 شجرة نخيل وفي تيديكيلت 1.500.000 [16] ومنه نرى بأن التمور كانت من أهم المنتجات التي كان يعتمد عليها أهالي توات سواء فيما يخص الاستهلاك العائلي أو التسويق والتجارة إلى مختلف جيوب السودان بما في ذلك المناطق الشمالية للجزائر، فعند وفرة هذه المادة تصل حمولة رأس واحد من الجمال نحو 180 إلى 220 كلغ من التمور وإذا كان العكس تكون حمولته 20 إلى 60 كلغ [17] . وبذلك نستنتج بأن إنتاجه ارتبط بتقلبات المواسم، وهي الميزة الغالبة على مناخ الجزائر بشكل عام.

إلى جانب التمور، كان التبغ والحناء من بين المواد الزراعية الهامة في التجارة مع الجيران فيذكر بأن الحناء كان يصل ارتفاع سيقانها من ثلاثة إلى أربعة أمتار تقطف في شهر جويلية ثم تجفف.

هذا إلى جانب مختلف الزروع من خضار التي تزرع في محيط الواحات، ولكنها كانت موجهة إلى الاستهلاك القبلي وتلبية الحاجات اليومية للسكان ولكن ليس بالكمية التي كانت تنتج في المناطق الشمالية أو في منطقة السهوب بسبب عامل التدرج في التربة والتساقط .

ب.المقدرات الصناعية: كشفت تقارير الحكومة العامة قبل توسعها و إخضاعها للإقليم عن جملة من المقدرات التي تمتعت بها منطقة توات ولكنها لم تستغل بكاملها لأسباب موضوعية يأتي في مقدمتها القصور التكنولوجي الذي كانت عليه البلاد ولكنها فتحت الشهية للإدارة الاستعمارية فيما بعد لاستغلال كل ما أمكن استغلاله خدمة للمشروع الاقتصادي الرأسمالي الكولونيالي.

3.ب.1: المواد الأولية الطبيعية

من بين الموارد الطبيعية في الإقليم نذكر:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الألماس: حسب شهادة سي الحاج عبد القادر بن أبي بكر التواتي الذي كلفه القبطان (Boissonnet) لجمع المعلومات الكافية عن الإقليم ، كتب هذا الأخير في تقرير له ما يلي: " **وجدت الألماس في إقليمنا وسط بعض الصخور السوداء فكان من المستحيل أخذ عينة منها لأن تلك الصخور كانت شديدة الصلابة فلا يمكن كسرها بوسائل حديدية عادية وهي في شكل ألماسات تشبه حبيبات الرمان تلمع مثل الزجاج وتحمل اللونين الأبيض والأزرق ...**" [18]. وجدت هذه الصخور بين ويللن شمال غرب أدرار و أقابلي جنوب غرب عين صالح بالإضافة إلى الحجر الفحمي الذي وجد بين حاسي العز و حاسي المهارزي [19].

الكبريت: أشار رولاند (Rolland) إلى وجود مادة الكبريت في المنطقة الواقعة شرق تادمايت على بعد 50 كلم من المكان المسمى " ضاية الكبريت " وهي الضاية الغنية بهذه المادة [20]. كان يعتمد على هذه المادة لمعالجة أمراض جرب البعير [21]. و تحليلا لأهمية نسب مكوناته في صناعات أخرى وفرص الاستفادة منه ، أعطيت في سنة 1893 إلى المهندس

جاكوب (Jacob) عينات من مادة الكبريت التي تبين أنها ذات نوعية جيدة حسب تقارير الأخصائيين [22].

الملح الصخري: أفاد قبطان الهندسة العسكرية كاريت (Carette) خلال 1844 بوجود عدة مناطق تتوفر على الملح الذي كان يستغله أهالي الإقليم بجبل بارقة وخنقة سيدي ناجي، و واد جرف [23]. ولمعرفة أهميته الاقتصادية ومجالات الاستفادة منه ، أخذت عينة منه في سنة 1896 من قورارة بالمكان المسمى تينإركوك اكتشف منذ أن صادف أحدهم – حسب الرواية – وهو صاحب قافلة صغيرة كانت متجهة نحو الأبيض سيدي الشيخ محملة بمواد قورارة من تمور وألبسة وملح كان من بين سلعه المحمولة في تجارته فذكر بأنه جلبه من سبخة تيميمون، واتضحت أهميته بعد تحليله فكانت النتائج بعد فحص مواده مخبريا غناه بالأملاح الخارجية ذات الاستعمالات الواسعة في الصناعات المتعددة مثل: الكلور، النترات، البوتاسيوم، الجير... الخ ، وللتأكد من أهميته تبعه تحليل مخبري وكمي آخر قام به المراقب الرئيسي للمناجم بمخبر مصلحة المناجم بمدينة الجزائر السيد (Simon) ، وتحت إدارة المهندس الرئيسي جاكوب الذي خلص تقريره إلى غناه بالنترات بنسبة 68.50 % [24] ، لذلك وصفته مصادرنا بأن أهميته ومكوناته تشبه إلى حد كبير مناجم الملح في البيرو و الشيلي إذ أن نسبة الملح تفوق 60 بالمائة وهي بذلك النسبة الغالبة.

لكلور الصوديوم: فهو يتركز بكثرة بحوض الساورة ، وفي السبخات خاصة في المواقع المنجمية التي تحمل خليط مع الجبس حيث يستغل بشكل كبير في قورارة وتوات بغرض مقايضته بمنتوجات السودان ومع القوافل التجارية التي تقصد تمبوكتو [25]. وتعتبر هذه المواد أساسية في الكثير من الصناعات في عالم اليوم ولدى البلدان المتطورة.

3.ب.2 : أهم الصناعات والحرف اليدوية

اكتفت ساكنة المنطقة على غرار أهالي الجزائر قاطبة بالموروث العائلي الذي لا يزال إلى اليوم يسيطر على حياة الأسر و العوائل ويأتي في مقدمته الصناعات النسيجية والألبسة. فكانت كل العائلات تحترف هذه الصناعة المخصصة للاستهلاك العائلي ، وموجهة أيضا للسوق الاستهلاكية الداخلية في الشمال أو بلاد السودان في نفس الوقت ، فكان يغلب عليها الصناعة الصوفية والنسيجية وأحيانا يمزج الصوف مع الحرير لصنع الأحزمة النسائية فكانت الصناعة النسيجية في إقليم توات يصل صيتها إلى صناع مدينتي سانت إيتيان (Saint-Etienne) و ليون (Lyon) بفرنسا [26].

إلى جانب الأنشطة المرتبطة بالأصواف وفرت أيضا المواد الأولية السطحية فرصة للبروز في صناعة الأغراض واللوازم المنزلية التي يحتاج إليها الفرد في يومه، ومن بين هذه المواد التي ساهمت في تطور الصناعات التقليدية والحرفية نذكر: وبر الجمال، والأصواف، وجريد النخل حيث برزت صناعة الأشرطة الخاصة بالجمال والإبل التي كان تقتنيها قوافل الغرب الجزائري، والغرايز المصنوعة من وبر الجمال والذي يسميها أهالي الإقليم بالكشاش وصناعة الزرابي القطنية والحبال والأكياس والصناعات الجلدية والقفاف والصحون والكسكاسات والشباك والحبال [27].

4. التجارة والمالية :

تعتبر التجارة من أبرز وأنشط فروع الجانب الاقتصادي الذي نحن بصدد دراسته، حيث مثلت التجارة نشاطا متميزا بحكم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الموقع المتميز لإقليم توات باعتبارها ملتقى للتجارة بين الشمال والجنوب ومنه إلى مختلف جيوب افريقيا جنوب الصحراء من جهة، وبحكم موارده المتوفرة التي تدخل بها السوق التجارية مع مختلف قوافل البلاد غربها وشرقها حتى نالت التجارة حصة الأسد في اقتصاديات توات .

1.4 **الأهمية التجارية لإقليم توات :** يذكر بأن توات كانت مركز تجاري هام يربط السكان بالسودان فهو يجمع بين المواد المحملة من الشمال عند البحر الأبيض المتوسط عبر المغرب أو ليبيا والمواد التي تنتجها المنطقة ، فيذكر بأن إقليم توات فرض نفسه تجاريا على القوافل التي تقصد افريقيا جنوب الصحراء كمملكة البورنو ، والهوسا ، وماسينا وموغادور، بما في ذلك مدينة طنجة المغربية وطرابلس ومصر [28]، وتضيف المصادر بأن ساكنة الاقليم كانت تنتظر بشغف وبفارغ الصبر القوافل التجارية إما للتجارة أو للاسترزاق كوسطاء أو حمالين أو حراسا أو كشافين لتلك القوافل خاصة التي تحط رحالها بتوات لتكمل سيرها بعد الاستراحة الاجبارية نحو بلاد السودان [29] .

فحسب الكومندان (Deporter) تغادر قافلتان تجاريتان في كل سنة واحة أقابلي التي تتوسط واحات الإقليم نحو تومبوكتو ، فالأولى تغادر في الأيام الأولى من شهر أفريل وتصل أواخر شهر ماي ، وتمكث هناك طيلة ثلاثة أشهر وهي الأشهر التي تزداد فيها درجات الحرارة الشيء الذي يعيق عودتها لتعود أوائل شهر أكتوبر وتصل إلى أقابلي منتصف شهر نوفمبر ، أما القافلة الثانية تنطلق عكس ذلك، وفي نفس الفترات بمعدل 35 يوم وهي الفترة التي تستغرقها القوافل التجارية [30].

وعلى ذكر واحة أقابلي، يذكر بأنها كانت مفتاح توات لأنها كانت تحتل موقعا متميزا فهي تشرف بشكل رئيسي على الطريق السهل والآمن والمؤدي إلى مختلف جيوب الصحراء وبلاد السودان [31].

لقد كانت القوافل التجارية تقل الرجال والنساء والأطفال إلى الإقليم ومنه نحو بلاد السودان ومناطق أخرى من البلاد تتزود بما تحتاج من مختلف المواد الضرورية التي تستهلكها في حياتها اليومية، ولعل المتأمل في خط تطور هذه القوافل في الفترة الممتدة ما بين (1875-1895) اي خلال عقدين من الزمن يتضح له بأن أعداد هؤلاء كانت تقدر بعشرات بالآلاف .

2.4 : الطرق التجارية وطبيعة المبيعات والمشتريات

اما عن الطرق التجارية المؤدية إليها من الغرب إلى الشرق، نذكر :

- طريق المغرب الأقصى عبر فقيق أو تافيلالت إلى توات عن طريق وادي الساورة.
- طريق الجنوب الوهراني من وادي الناموس أو كما يسمى بالوادي الغربي.
- طريق مقيدن ووادي مينا وطريق غدامس وطريق غات.

. وبذلك تتصل حاضرة توات ببلاد السودان نحو تمبوكتو عبر طريقين رئيسيين وهما أولا طريق تزروفت ومبروك والأزواد، وثانيا طريق تيميساو وتصل النيجر في الشرق نحو الهوسا [32].

لذا فإن أهمية الإقليم تكمن في كونه ملتقى ومفترق الطرق الرئيسية ، فالمسافة بين توات نحو وهران عبر تلمسان هي 1310 كلم، وبين توات نحو مدينة الجزائر مرورا بالأغواط تمثل 1494 كلم أما المسافة بين توات نحو ميناء سكيكدة مرورا ببسكرة تمثل 1650 كلم. فمثلا فإن عائدات مداخيل طريق توات عبر عين صالح بلغت في سنة 1891 نحو 750.000 فرنك [33].

أما عن المواد المنقولة إلى السودان فهي متعددة ومتنوعة مثل : بنادق الصيد، الأسلحة البيضاء، خردوات ألمانية، قطن هندي، برانس، خيوط، صابون ، سكاكين، الكبريت والملح الصخري اللذان خضعت تجارتهما إلى جانب الرصاص ومواد أخرى إلى الإجراءات المطبقة منذ 17 ماي 1881 على تجارة البارود، وهي الإجراءات المضيقة فلا يمكن للأهالي الحصول عليها إلا برخصة من الهيئات العسكرية [34] ، حيث بدأت الإدارة الاستعمارية تضيق الخناق على أهالي توات ربما لاعتبارات أمنية مخافة استهدافها خاصة وأن تلك الفترة كانت قد نشطت فيها مقاومة الشيخ بوعمامة أي قبل إخضاعها واحتلالها ، أما بالنسبة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لأهم المواد المجلوبة من السودان فهي (ريش النعام، العاج، الرقيق [35].

كانت لتجارة الرقيق نصيبها في التجارة بين توات وبلاد السودان فالجدول يوضح اسعار الرقيق في سوق تومبوكتو وفي أسواق إقليم توات (سوق توات-تيديكيلت – قورارة)

الجدول رقم (01)

الجنس	السن	البيع بتمبوكتو/ف	البيع بتوات/ف
فتيان	04 – 10 سنوات	50 – 80	150 – 200
فتيات	04 – 10 سنوات	80 – 160	200 – 350
ذكور	11 – 16 سنة	150 – 200	300 – 400
إناث	11 – 16 سنة	200 – 350	500 – 600
رجال كهول	16 – 25 سنة	150 – 200	400 – 250
نساء	16 – 25 سنة	200 – 300	450 – 550
رجال	25 سنة فما فوق	100 – 200	350 – 500
نساء	25 سنة فما فوق	150 – 250	400 – 500

المصدر: H. BISSUEL, Le Sahara Français conferences sur les questions sahariennes faites les 21 et 31 mars 1891 à M.M les officiers de la garnison de Médéa, Adolphe JOURDAN, libraire éditeur, Paris,1891,p.54

فالمتأمل لهذه المعطيات العددية في الجدول يستنتج ما يلي:

1. أن كلا الجنسين ذكورا وإناثا من مختلف الفئات العمرية كانوا عرضة للبيع والشراء في بلاد السودان وتوات من بنات ، واطفال إلى شباب وكهول.
2. تتباين أسعار الرقيق حسب السن ، ويرتبط ذلك بالقدرة الحركية ، والقوة البدنية ،والنشاط الذي يتمتع به الفرد من مرحلة إلى أخرى.
3. أسعار بيع الجنس الأنثوي تفوق أسعار الجنس الذكوري .
4. هامش ربح تجارة الرقيق في إقليم توات كانت تتجاوز 150 % من أرباح سعر الشراء.

على ذكر الرقيق ، تذكر مصادرنا بأن هؤلاء كانوا يعاملون برأفة فكان القائمون على شؤونهم يضمنون لهم الطعام والمسكن فكانوا افرادا ضمن العائلة فإذا تزوج أحدهم تصبح زوجته مربية ذات ثقة في البيت [36].

وفي اعتقادنا أن أولئك الزنوج اللذين كانوا يمثلون العنصر الفعال في الزراعة وخدمة البيوت أصبحوا ضمن أفراد الأسرة واعتنقوا الإسلام وانصهروا تحت تأثير عادات وتقاليد ساكنة المنطقة الأقحاح. ومنهم من تعامل مع الاستعمار من خلال سخاءه معهم بعد إخضاع الإقليم وتحول إلى أداة ضد ساكنة الإقليم باعترافات رجالاته العسكريين والمدنيين ، فثمة مصادر أشارت إلى الوضعية الاجتماعية و العسكرية لهؤلاء بعد 1901 وهو تاريخ إخضاع لإقليم توات إلى الاحتلال الفرنسي.

لم تخف المصادر الأجنبية أهمية الزنوج في خدمة المنظومة الاستعمارية في الجزائر حيث يؤكد موريس واهل Maurice WAHL في كتابه على أهمية العنصر الزنجي في تغلغل الرجل الأبيض في مختلف جيوب الصحراء الجزائرية وما وراءها. وما نستدل به في هذا المقام هو قوله: " إن الزنوج والمولدين يتحملون أكثر من غيرهم حرارة الصحراء وقساوتها و مستنقعات مياهها

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الضحلة" (37) ويردف قائلا : " إنهم عرق العمال الأقوياء ...يتكيفون مع مناخ أية منطقة" (38).

لعل المتمعن في هذه الأدبيات يفهم ما يلي:

- أن القوات الاستعمارية بسلطتها العسكرية والمدنية استهدفت العنصر الزنجي لسوء حالته العامة لضرب استقرار المناطق التي يقيمون فيها ويسترزقون منها.
- كان الزنوج أداة طيعة وورقة رابحة للدخلاء الأجانب بحكم بنيتهم الجسدية واعتيادهم على قساوة المناخ والطبيعة لأنهم ترعرعوا في البيداء وألفوا حياتها بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

ومن الطبيعي أنه ليس كل زنجي موال للاستعمار بقدر ما كانت هناك محاولات لامتصاصه والتأثير عليه، كانت فئة أخرى تناقض التيار الاستعماري، فتأثرت الزنوجية بالطرق الصوفية وانضمت إليها حتى أصبحت طائفة الزنوج المقربة من الوالي الصالح أو مقدم الطريقة وكمثال على ذلك ثبت بأن الحاج سيدي أبو حفص الإبن الصالح لسيدي عبد القادر بن محمد بن سليمان بن بوسماحة المرابط الذي عرف باسم سيدي الشيخ أنه منح ثلاثة من الزنوج إلى شيخه سيدي عبد الرحمان مول السهول وتكليفهم بإدارة شؤون الزاوية، فشكل هؤلاء فروع لهم في عشرات القبائل والمضارب مع مرور الزمن (39).

3.4. : المراكز التجارية الرئيسية في الإقليم

أما عن المراكز التجارية الرئيسية في الإقليم يذكر ولفس بأن تيميمون وأدرار وتمنطيط كانت من الأسواق والمراكز الكبيرة تجارة وإقبالا ، فكانت تيميمون مركز إنتاج طبيعي للتمور تسويقا واستهلاكا إضافة إلى الملح، ومركزا أيضا للصناعات اليدوية كصناعة البارود والجلود ومركز عبور .أما عن تمنطيط، فيذكر بأنها مركز عبور للقوافل تميز سكانها بما ورثوه عن أجدادهم في أنشطتهم اليدوية ، فمنهم الإسكافيون والخياطون وبائعي الأسلحة ، ويذكر جول كامبون الحاكم العام بأنها كانت تتميز بشوارعها الطويلة والضيقة تزينها في جانبيها الأيمن والأيسر المحلات والدكاكين [37].

ازدادت أهمية توات لما غدت مشروعا حيويا واستراتيجيا للإدارة والسلطات الاستعمارية المدنية منها والعسكرية ، هذا ما أكدته الأدبيات التي لم يكن يخفيها الساسة لما أثيرت مسألة إنجاز خط حديدي يربط الشمال بتمبوكتو مرورا بتوات ومما نستدل به في هذا الشأن ما ذكره (L. DERRIEN) الذي كشف عن أهمية ربطه بموانئ الشمال ومنها نحو فرنسا لأن أرباحه تفوق عائدات خط بسكرة – الأغواط و (DAMON) الذي قال: **" ينبغي على جيلنا أن يفهم جيدا برنامجنا " ثم يكمل " ان الصحراء أشبه ببحر داخلي وقوافله شبيهة بالأساطيل فإننا فكرنا في أن نصبح أسيادا لهذا البحر فبذلك نتمكن من احتلال موانئ تومبوكتو وعين صالح وربط هاذين المرفأين بالساحل بواسطة السكة الحديدية، إن إقليم توات سيصبح مثل منطقة وادي ريغ بل أغناها** [38].

4.4 المالية:

لا يمكن التكلم عن التجارة دون الجانب المالي فكلاهما يمثل القطاع الثالث في الظهور عبر مختلف الأزمنة والعصور ، فإذا كان نظام المقايضة يطبعها بشكل كبير ، كانت تتم أيضا بواسطة النقود التي اختلفت قيمتها وتسمياتها حسب ما أفاد به الكومندان (Colonieu) خلال الرحلة التي قادته إلى قورارة ، ويشاطره الرأي المغامر الألماني (Rohlfs) اللذان أكدا على تنوع العملات المتداولة في التجارة بإقليم توات حيث وجدت القطع الفرنسية، والمعروفة بالدورو عند الأهالي التي كانت قيمتها المالية تساوي 05 فرنكات و35 سنتيما أو 16 أوقية بتيكيدلت، وحسب رولفس كانت قيمتها في توات 17 أوقية [39] ، فلا ندري سبب هذا الاختلاف البسيط ، ربما نرجعه إلى قانون العرض و الطلب أو بسبب طبيعة وأهمية المواد المعروضة للبيع .إضافة إلى الدورو، وجد أيضا ما عرف بدورو بومدفع وهي القطعة التي كانت قيمتها تساوي 06 فرنكات إسبانية والتي يقابلها 18 أوقية ، والتي كانت هي الأخرى تقل قيمتها في تيكيديلت إذ كانت تساوي 16 أوقية أي 05 فرنكا بفارق 01 فرنك، إلى جانب عملات أخرى مثل الريال (06 موزونة) الذي يقابله 02 فرنك، والربعي الذي يمثل 0.50 فرنك إلى جانب الدرهم الذي يساوي 0.333 فرنك [40] . وحسب المغامر الألماني رولفس، وجد أيضا ما عرف بالمثقال

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الذي يمثل 1600 فرنك في الألف أي بمعنى 1 مثقال تساوي 01 فرنك و60 سنتيما[41] ، أما عن العملة الذهبية فكانت نادرة جدا إذ يروي الألماني رولفس بأنه صادف مشكلة في صرف قطعة ذهبية كان يحملها معه منذ حلوله سنة 1864 لولا الصدفة التي جمعته بأحد تجار غدامس الذي استبدلها له شريطة التخفيض من قيمتها بنسبة 50 % لتلبية متطلباته من مختلف المشتريات [42].

5. خاتمة:

اعتبر إقليم توات من المناطق الرئيسية والهامة ، فهو حلقة وصل بين الشمال والجنوب الكبير نحو إفريقيا جنوب الصحراء ، واتصل معها عن طريق القوافل التجارية .لكن الكتابات المعاصرة لم تطرق المواضيع الاقتصادية والاجتماعية التي لا تزال مغيبة وتحتاج لبحوث مضنية ، لذلك كانت مساهمة منا لدراسة هذا الجانب – الاقتصادي - قبل أن تحتل القوات الفرنسية الإقليم الذي كان في مطلع القرن العشرين. فبعد أن تعرفنا على جغرافيته وأهم المصادر التي اعتمدناها في مقالنا هذا لأنها كانت مصادر حكومية ومذكرات شخصية دونها أصحابها ممن الذين أسعفهم الحظ للوصول إلى إقليم توات بواحاته على عكس ممن لقوا حتفهم وهم في طريقهم إليها ومنها نحو بلاد السودان، وحصرنا الأهمية الاقتصادية لحاضرة توات في مقدراتها الزراعية من شبكة هيدروغرافية نهرية وأساليب تقليدية راسخة تترجم تمسك أهالي الإقليم بعادات وتقاليد الأولين ممن عاشوا واستقروا في هذه البلاد، وجاهدوا بأناملهم وأيديهم متبعين الأساليب التقليدية لتوفير متطلباتهم واحتياجاتهم مواجهين مصاعب الطبيعة والسطح في الصحراء. كما عرجنا أيضا على الإمكانيات التي خصها الله سبحانه وتعالى في الجانب الصناعي من جريد النخل والواحات و وبر الجمال والإبل والرمال ومقدرات صناعية طبيعية مختلفة فهي بذلك معرض طبيعي ، فهذه المقدرات إلى جانب موقعها المتميز جعلها تعتمد على التجارة من وإلى الشمال أو منها نحو بلاد السودان وشواطئها الرملية.

ولعل أهمية الإقليم جعلته عرضة للاحتلال فيما بعد فغدت الصحراء عموما وتوات خصوصا مشروعا حيويا واستراتيجيا للسلطات الاستعمارية المدنية والعسكرية حيث لم تكن تخف أدبيات وتصريحات رجالات فرنسا من سياسيين وضباط واخصائيين هذه الأهمية التي كان يحضى بها الإقليم خلال الجلسات البرلمانية لما أثيرت مسالة إنجاز خط حديدي يربط الجزائر بتمبوكتو عبر توات.

كانت هذه رحلة قصيرة مع أهمية إقليم توات قبل احتلاله كونها احتلت بعد مضي قرابة سبعة عقود من الزمن والتي وددنا أن نعرج على تاريخها ومكانتها الاقتصادية على المستوى المحلي اسهاما منا في التأريخ لهذا الجزء من القطر الذي ينتظر منا دراسة أكاديمية وعلمية موثقة في الفترة المعاصرة إيمانا منا بأن تاريخ الكل يبدأ من الجزء.

قائمة المراجع:

أولا: بالعربية.

1. ابن بطوطة (محمد بن عبد الله)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار بيروت للطباعة، لبنان، 1980
2. ابن خلدون (عبد الرحمان)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعمران والبربر ومن عاصرهم من وي السلطان الأكبر، بيروت، 1967
3. فرج (فرح محمود)، إقليم توات خلال القرنين الثامن والتاسع عشر الميلاديين، الجزائر، 1984
4. مقلاتي (عبد الله)، دور منطقة توات الجزائرية في نشر الاسلام والثقافة العربية بافريقيا الغربية، الشروق، الجزائر، 2009
5. الوزان (حسن بن محمد)، وصف افريقيا، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1989

ثانيا: بالأجنبية.

1. (J), « Les confréries musulmanes du Nord de l'Afrique » in Bulletin de la société de géographie de Saint-Quentin, n°14, Mars / Avril 1891
2. Bissuel, La Sahara Français, Adolphe Jourdain, Alger, 1891
3. BROSSARD Charles, Tlemcen et Tombouctou, imprimerie A. Bourget, Alger, 1861

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

4. CAMBON (Jules), Documents pour servir à l'étude du Nord-Africain, gouvernement général de l'Algérie, Alger, 1897
5. DAMON, L'exploration de Touat, Henri Charles Lavauzelle imprimeur, Paris
6. DERRECAGAIX, « In –Salah et son commerce » in Journal Le Tafna, n°962, Mercredi 11 Avril 1900
7. DERRIEU (L), Le chemin de fer Transsaharien d'Oran au Touat par Tlemcen et l'Oued Messaoura, Adolphe perrieu éditeur, Oran, 1879
8. DAUMAS Colonel, études géographiques, statistiques et historiques sur la région du Sud des établissements Français en Afrique, Dubois frères, Alger, 1845
9. GEORGES William, « Au pays des Ksours » in Journal l'indépendant de Mascara, n°1245, Jeudi 12 Novembre 1896
10. INCONNU, Rhat et Bilma, un demi-siècle de conquêtes pacifiques, imprimerie A. L. Guillet et A. Julien, Paris, 1887
11. Jean de BLIDA, « Le Touat » in Journal le Tafna, n°433 , Mercredi 28 Octobre 1891
12. LECLERC Maurice, Les Oasis de la province d'Oran , les Ouled-Sidi- Cheikh, chez teissier libraire éditeur, Alger, 1857
13. Mission de Ghdames, Rapports officiels et documents à l'appui, typographie Duclaux, Alger, 1863
14. REBILLET (Commandant), Les relations commerciales de la Tunisie avec le Sahara et le Soudan, imprimerie Berger Lavirault, Nancy, 1895
15. ROLLAND (G), Géologie et hydrologie du Sahara Algérien et aperçu géologique sur l'Océan atlantique à la mer rouge, 1890
16. WAHL Maurice, l'Algérie, librairie Germer Bailleres et Cie, Paris, 1882

. هوامش:

(1) Jean de BLIDA, « Le Touat » in Journal le Tafna, n°433, Mercredi 28 Octobre 1891,p.1

(2) DERRECAGAIX, « In-Salah et son commerce » in Journal Le Tafna, n°962, Mercredi 11 Avril 1900,p.1

(3) فرح محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن والتاسع عشر الميلاديين، الجزائر، ص.01

(4) عبد الرحمان بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعمران والبربر وم عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، 1967،ص.119

(5) محمد بن عبد الله بن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار بيروت للطباعة، لبنان، 1980، ص.800

(6) فرح محمود فرج، المرجع السابق، ص.01

(7) عبد الله مقلاتي، دور منطقة توات الجزائرية في نشر الاسلام والثقافة العربية بإفريقيا الغربية، الشروق، الجزائر، 2009، ص.52

(8) عبد الرحمان بن خلدون، المرجع السابق، 118

(9) حسن بن محمد الوزان، وصف افرقيا، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1989، ص.505

(10).BISSUEL, Le Sahara Français, Adolphe Jourdain, Alger, 1891,p.37

(11).Jules CAMBON, Documents pour servir à l'étude du Nord-Africain, gouvernement général de l'Algérie, Alger, 1897, p.186

(12).Ibid, p.217

(13).Ibid, p.226

(14).BISSUEL, Op .Cit, p.59

(15).Jules CAMBON, Op.Cit, p.228

(16).BISSUEL, Op.Cit ,p.49

(17). Jules CAMBON, Op.Cit, p.57

(18).Ibid, p.242

(19). Ibid, p.243

(20). G. ROLLAND, Géologie et hydrologie du Sahara Algérien et aperçu géologique sur l'Océan atlantique à la mer rouge, 1890, p.173

(21). Ibid, p.174

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(22). Ibid, p.174

(23). Jules CAMBON, Op.Cit, p.272

(24). Ibid, p.273

(25). Ibid, p.285

(26). Ibid, p.340

(27). Ibid, p.341

(28). INCONNU, Rhat et Bilma, un demi-siècle de conquêtes pacifiques, imprimerie A. L. Guillet et A. Julien, Paris, 1887,p.6

(29). Ibid,p.17

(30). DERRECAGAIX, « In-Salah et son commerce » in Journal Le Tafna, n°962, Mercredi 11 Avril 1900, p.1

(31). Commandant REBILLET, Les relations commerciales de la Tunisie avec le Sahara et le Soudan, imprimerie Berger Lavirault, Nancy, 1895, p.14

(32). Jules Cambon, Op.Cit, p.372

(33). Commandant REBILLET, Op.Cit, p.14

(34). G. ROLLAND, Op.Cit, p.178

(35).Colonel DAUMAS, Le Sahara Algérien , études géographiques, statistiques et historiques sur la région du Sud des établissements Français en Afrique, Dubois frères, Alger, 1845,p.330

(36). BISSUEL, Op.Cit, p.375

(37) . Maurice WAHL, L'Algérie, librairie Germer Bailleres et Cie, Paris, 1882,p.200

(38). Ibid

(39). Lucien LECLERC, Les Oasis de la province d'Oran , les Ouled-Sidi-Cheikh, chez teissier libraire éditeur, Alger, 1857,p.39

(40). Jules CAMBON, Op.Cit,p.377

(41). Mission de Ghdames, Rapports officiels et documents à l'appui, typographie Duclaux, Alger, 1863,p.44

(42). Jules CAMBON, Op.Cit, p.375

(43). Ibid ,376.

(44). J. BALTEAU, « Les confreries musulmanes du Nord de l'Afrique « in Bulletin de la société de géographie de Saint-Quentin , n°14, mars-avril 1891,p.01

(45). Jules CAMBON, Op.Cit, p. 376

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com